إطلالةٌ على الشخصية الإسلامية

في شعر أحمد شوقي

أ. بغداد عبد الرحمن
جامعة أبي بكر بلقايد–تلمسان

لقد كان الشعرُ العربي – على مدى العصور– سِجِلاً لأخبار العرب، يحاول الشاعر فيه أنْ يُسْمِعَ صوتَه ويحفظَ مناقب قومه و مفاخرهم من الضياع و أحداثهم من الطَّمْسِ، حتَّى إننا نجد الفاروق عمر بن الخطاب نفسه يُشِيدُ بذلك قائلاً: "لولا الشعراء ما عُرِفَ جُود حاتِم، و كَعْبْ بن أُمَامَة، و هَرَم ابن سِنَان, و أولاد جَفْنَةَ، وإنما أشاد بِذِكْرِهِمْ الشِّعْرُ" [1].

ولا غرابة إنْ وجدنا – بعد ذلك – في شعر أحمد شوقي الإسلامي ظواهرَ لافتةً للعيان, تضُمُّ معطيات تاريخ العرب ودلالات تراثهم، حيث قام الشاعر باستلهام الحدث التاريخيّ والشخصيات الإسلامية وما حملته من دلالات و إشارات بغية توظيفها في قصائده، مما أتاح له الوقوف على ما فَجَرَّتْهُ تلك الشخصيات و المواقف التاريخيّة من مشاعر و دلالات نمَّتْ القدرة الإيحائية للقصيدة.ولعل المتصفِّحَ لديوانه "الشوقيات" يُلاحظ أنَّ شوقي: "لا يكاد يترك مناسبةً من المناسبات دون أنْ ينظمَ فيها شِعْراً، ينظم فيها حين تنتصر وحين تهزم, وحين تقوم ثورة و حين يُؤسَّسُ دستورٌ، وحين يزور عباس الآستانة ويزورها معه" [2] .

ولهذا جاء شعر شوقي سِجِلاً لأحداث الأمة الإسلامية، ولسانَ صِدْقٍ في الذَّوْد عن رموزها ورجالها، حيث لم يترك حادثةً ذات شأن في مجرى التاريخ الإسلامي إلا سجَّلها. غير أنَّ التاريخ عند شوقي ليس الذي يتتبَّعُ سرد الأحداث و وصفها، إنما: "التاريخ عنده هو سِجِلّ السلوك البشري، أو الإرادة البشرية وما فاضت إليه من الأحداث و تعاقب الأمور، ثم ما يكون من وراء ذلك منْ حكمة يستنبطها الشاعر أو فلسفة يُذِيعُها في الناس " [3]. فكانت معظم أشعار شوقي تبحث في سَبْر أغوار تلك الشخصيات التاريخية التي تمكَّنتْ من تخليد أسمائها في تاريخ أمتها الإسلامية:

قَدْ أَقَامُوا قُدْوَةً صَالِحَةً ⁂ وَمَضَوْا أَمْثِلَةً لِلْمُحْتَذِينَ.

إِنَّمَا الأُسْوَةُ – وَالدُّنْيَا أَسىً – ⁂ سَبَبُ العُمْرَانِ، نَظْمُ العَالَمِينَ. [4]

1. **الأنبياء :**

اقتضتْ حكمة الله سبحانه وتعالى في الأمم قبل الأمة الإسلامية أنْ يُرْسِلَ في كلٍّ منها نذيراً، ولم يُرْسِلْ رسولاً للبشرية كلها إلاَّ محمداً ρ، و إذا اعتبرنا شرائع الأنبياء مختلفة، فإنَّ الدِّينَ الذي جاءتْ به الرسل واحدٌ وهو: "الإسلام". وفي هذا المعنى، فلا عجب أنْ يكون الأنبياء أفْضلَ خَلْقِ الله على الإطلاق، فقد اختارهم عزَّ وجلَّ ليكونوا أُمَنَاءَ وحْيِه، والعاملين على إقامة دينه، فمَنْ جَحَدَ بهم فَقَدْ كَفَرَ، لذا فالمدح والثناءُ لهم أوْلى وأسْبق :

إِنَّمَا الأَرْضُ وَالفَضَاءُ لِرَبِّي ⁂ وَ مُلُوكُ الحَقِيقَةِ وَ الأَنْبِيَاءُ.

لَهُمْ الحُبُّ خَالِصاً مِنْ رَعَايَا ⁂ هُمْ، وَ كُلُّ الهَوَى لَهُمْ وَ الوَلاَءُ.

إِنَّمَا يَنْكُرُ الدِّيَانَاتِ قَوْمٌ ⁂ هُمْ بِمَا يَنْكُرُونَهُ أَشْقِيَاءُ [5].

وتُعَدُّ قصيدة أحمد شوقي "كبار الحوادث في وادي النيل" من أطول القصائد (264 بيتاً) التي أرَّختْ لماضي مصر وحاضرها بأسلوب تاريخي وفنيٍّ رفيع، كما اعْتُبِرَتْ من أهم النماذج الشعرية التي تناولت ماضي الأمة الإسلامية بمفاصلها التاريخية الهامة، لاسيما في توظيف أحمد شوقي لجميع العناصر التراثية التي عرفتها تلك الأمة بدءً بسيرة الأنبياء والرُّسُل، سواء عن طريق التلميح والإشارة أو عن طريق الاستغراق الكامل والتوظيف الفني الفعال الذي يستثير الماضي ويُذَكِّر به ويحثُّ مجتمعه على استخلاص العبر منه، فالماضي عند شوقي: "عِبْرةٌ مفْروضةٌ وعِظَةٌ مسْموعةٌ، لا حيلةَ للناس فيها، فَرَضَتْ نفسها عليهم بخيْرِها و شرِّها، ومنْ لا يعْرِف التاريخ حقيقٌ أنْ يُعِيدَهُ بجميع خَطَئِهِ" [6]. ويبدأ قصيدته بذكْرِ الأنبياء والرُّسُل حيث يقول عن النبي موسى υ الذي أرسله الله تعالى هادياً للحيارى، ومُرْشداً للضَّالين، ومُكْرِماً للعقول ومرتفعاً به عن الوثنية والكفرة :

وَاتَّخَذْنَا الأَسْمَاءَ شَتَّى ، فَلَمَّا ⁂ جَاءَ مُوسَى انْتَهَتْ لَكَ الأَسْمَاءُ.

حَجَّناَ فِي الزَّمَانِ سِحْراً بِسِحْرٍ ⁂ وَ اطْمَأَنَّتْ إِلَى العَصَا السُّعَدَاءُ.

وَيُرِيدُ الإِلَهُ أَنْ يُكْرَمَ العَقْ ⁂ ـلُ، وَأَلاَّ تُحَقَّـرَ الآرَاءُ.

ظَنَّ فِـرْعَونُ أَنَّ مُوسَى لَهُ وَا ⁂ فِ، وَعِنْدَ الكِرَامِ يُرْجَى الوَفَاءُ.

مِصْرَ مُوسَى عِنْدَ انْتِمَاءٍ، وَمُوسَى ⁂ مِصْرُ إِنْ كَانَ نِسْبَةٌ وَ انْتِمَاءُ.
فَبِهِ فَخْرُهَا المُؤَيَّدُ، مَهْمَا ⁂ هُزَّ بِالسَّيِّدِ الكَلِيمِ اللِّوَاءُ [7].

وبسبب كثرة جهل فرعون وتكذيبه بآيات الله واستكباره عن إتباعها، أظهر الله موسى υ على فرعون والسحرة أجمعين لَمَّا جعل العصا تلتبس بالحبال حتى صارت حِرْزاً للثعابين، تدخل فيه حتى ما أبقت عصاً ولا حبلاً إلا ابتلعته,ليكون بذلك أكبر مقاصد موسى υ أن يظهر آيات الله وحججه وبراهينه. وحينئذ كان لنبينا موسى υ أكبر التشريفات من ربه الكريم، ولمصرَ أعزّ فخرٍ دياراً وأهلاً .

ثم يسير أحمد شوقي على هذا النهج الدقيق في استقصاء أحداث الأنبياء وسرد وقائعهم، حيث يُتابعُ حديثه عن الرُّسُل مُهلِّلاً بمولد النبي الكريم عيسى υ, الداعي إلى الرفق و الرحمة، والمبشِّر بالسلام والتسامح:

وُلِدَ الرِّفْقُ يَوْمَ مَوْلِدِ عِيسَى ⁂ وَ المُرُوءَاتُ وَ الهُدَى وَ الحَيَاءُ.
وَازْدَهَى الكَوْنُ بِالوَلِيدِ وَضَاءَتْ ⁂ بِسَنَاهُ مِنَ الثَّرَى الأَرْجَاءُ.
وَ سَرَتْ آيَةُ المَسِيحِ كَمَا يَسْ ⁂ رِي مِنَ الفَجْرِ فِي الوُجُودِ الضِّيَاءُ.
تَمْلأُ الأَرْضَ وَ العَوَالِمَ نُوراً ⁂ فَالثَّرَى مَائِجٌ بَهاً وَضَّاءُ.
مَلَكٌ جَاوَرَ التُّرَابَ فَلَمَّا ⁂ مَلَّ نَابِتٌ عَنِ التُّرَابِ السَّمَاءُ [8].

ثم يُعَرِّجُ على ما مَنَّ به الله تعالى على نبينا عيسى υ بالبينات و تأييده على قومه,و ما زاده منْ تشريفٍ حين ألقى إلى أمّه البتول مريم كلمةً منه، وبذلك يكون قد أرضى قراءَهُ من المسيحيين [9] حيث يقول :

لَوْلاَ مَكَانٌ لِعِيسَى عِنْدَ مُرْسِلِهِ ⁂ وَ حُرْمَةٌ وَجَبَتْ لِلرُّوحِ فِي القِدَمِ.
لَسُمِّرَ البَدَنُ الطُّهْرُ الشَّرِيفُ عَلَى ⁂ لَوحَينِ لَمْ يَخْشَ مُؤَذِّيهِ وَ لَمْ يَحِمِ.
جَلَّ المَسِيحُ وَ ذَاقَ الصَلْبَ شَانِئُهُ ⁂ إِنَّ العِقَابَ بِقَدْرِ الذَنْبِ وَ الجُرُمِ.
أَخُو النَبِيِّ وَ رُوحُ اللَّهِ فِي نُزُلٍ ⁂ فَوْقَ السَّمَاءِ وَدُونَ العَرْشِ مُحْتَرَمِ [10] .

ثم يصل إلى أحقّ الناس إتباعاً وتصديقاً نبيِّنا الكريم محمد ρ، حيث يُصوِّرُ شوقي البهجة العارمة التي ملأتْ الأرض بمولد خير الورى الذي خُلِقَ ليكون رسولاً مُبشِّراً بِدينٍ ورسالةٍ روحيةٍ مأمولةٍ:

وُلِدَ الهُدَى فَالكَائِنَاتُ ضِيَاءُ ⁂ وَفَمُ الزَّمَانِ تَبَسُّمٌ وَ ثَنَاءُ.
الرُّوحُ وَالمَلأُ المَلاَئِكُ حَوْلَهُ ⁂ لِلدِّينِ وَالدُّنْيَا بِهِ بُشَرَاءُ.
وَالعَرْشُ يَزْهُو وَالحَظِيرَةُ تَزْدَهِي ⁂ وَالمُنْتَهَى وَالسِّدْرَةُ العَصْمَاءُ.
وَحَدِيقَةُ الفُرْقَانِ ضَاحِكَةُ الرُّبَا ⁂ بِالتُّرْجُمَانِ شَذِيَّةٌ غَنَّاءُ.
وَالوَحْيُ يَقْطُرُ سَلْسَلاً مِنْ سَلْسَلٍ ⁂ وَاللَّوْحُ وَالقَلَمُ البَدِيعُ رُوَاءُ.
نُظِمَتْ أَسَامِي الرُّسْلِ فَهِيَ صَحِيفَةٌ ⁂ فِي اللَّوْحِ وَاسْمُ مُحَمَّدٍ طُغْرَاءُ.

اِسْمُ الجَلاَلَةِ فِي بَدِيعِ حُرُوفِهِ ⁂ أَلِفٌ هُنالِكَ وَاِسْمُ طَهَ البَاءُ.

يَا خَيْرَ مَنْ جَاءَ الوُجُودَ تَحِيَّةً ⁂ مِنْ مُرْسَلِينَ إِلىَ الهُدَى بِكَ جَاؤُوا [11].

ومن ذلك أيضاً، تصويره لحاجة الناس إلى معلمٍ بشريةٍ يبذل العلم بين الناس، ويُقَوِّمُ علوم السابقين، ويبين ما فيها من تحريف و تغيير:

أَشْرَقَ النُّورُ فِي العَوَالِمِ لمَاَّ ⁂ بَشَّرَتْهَا بِأَحْمَدَ الأَنْبَاءُ.

بِاليَتِيمِ الأُمِّيِّ ، وَ البشَر المُو ⁂ حَى إِلَيْهِ العُلُومُ وَ الأَسْمَاءُ.

قُوَّةُ اللهِ إِنْ تَوَلَّتْ ضَعِيفاً ⁂ تَعِبَتْ فِي مِرَاسِهِ الأَقْوِيَاءُ [12].

ولعل أعظم الآيات التي حَبَا الله بها رسولَنا العظيم محمد ρ، بل وأعظم آيات الرُسُل كُلِّهم– القرآن الكريم– وما ضمَّه منْ جوامع الكَلِمِ،مُتحدِّياً بذلك فصحاء العرب الذين كانت الفصاحة والبلاغة وجودة القول بضاعتهم التي نبغوا فيها، وفي ذلك يقول شوقي:

أَشْرَفُ المُرْسَلِينَ، آيَتُهُ النُّطْ ⁂ قُ مُبِيناً، وَقَوْمُهُ الفُصَحَاءُ.

لَمْ يَفُهْ بِالنَّوَابِغِ الغُرِّ حَتَّى ⁂ سَبَقَ الخَلْقَ نَحْوَهُ البُلَغاءُ.

وَأَتَتْهُ العُقُولُ مُنْقَادَةَ اللُبْ ⁂ بِ وَلَبَّى الأَعْوَانُ وَالنُصَرَاءُ .[13]

2. **الصَّحابة:**

اختار سبحانه وتعالى لنبيه المصطفى محمد ρ أصحاباً جعلهم أنصاراً لدينه ووُزراءً لرسوله ونموذجاً لكل مُسْلِمٍ يريد التقرب من الله تعالى، ومِنَ الصحابة الذين بذلوا أَنْفُسَهُم ومُهَجَهُمْ في سبيل إعلاء كلمة الله، نجد الصِّدِّيقَ أبا بكرٍ τ خليفة رسول الله ρ والذي عُرِفَ بمآثر ومفاخر كثيرة في الإسلام، ولعل أهمها قضاؤه على حركة الرِدَّة التي تفشت في معظم أنحاء الجزيرة العربية ما عدا مكة والمدينة والطائف، وفي هذا يقول شوقي مُشيداً بدور الصِّدِّيق في القضاء على المرتدين ودعاة النبوة و قد بلغ من العمر عُتِياً:

وَمـا بَلاَءُ أَبِي بَكْرٍ بِمُتَّـأَهَمٍ ⁂ بَعْدَ الجَلاَئِلِ فِي الأَفْعَالِ وَ الخِدَمِ.

بِالحَزْمِ وَ العَزْمِ حَاطَ الدِّينَ فِي مِحَنٍ ⁂ أَضَلَّتِ الحُلْمَ مِنْ كَهْلٍ وَ مُحْتَلِمِ [14].

ويُجْمِعُ المسلمون – بعد وفاة أبي بكر الصديق τ – على مبايعة الفاروق عُمَر بْن الخطَّاب τ خليفةً عليهم، ذلك الرجل العظيم الذي عَدَّهُ التاريخ من أقوى الرجال شَكيمةً، وأشدِّهم بأساً، وأعفِّهم نفساً، وأطْهَرِهم ذِمَّةً، وأنْقاهُم ذَيْلاً. يقول شوقي في حقِّه:

تَشْهَدُ الصِّينُ وَ البِحَارُ وَ بَغدَا ⁂ دُ وَ مِصْرٌ وَالغَرْبُ وَ الحَمْرَاءُ.

مَنْ كَعَمْرِو البِلاَدِ وَ الضَّادُ مِمَّا ⁂ شَادَ فِيهَا وَالمِلَّةُ الغَرَّاءُ.

شَادَ لِلمُسلِمينَ رُكْناً جَسَاماً ⁂ ضَافِيَ الظِلِّ دَأْبُهُ الإِيوَاءُ.

طَالَمَا قَامَتِ الخِلافَةُ فيهِ ⁂ فَاطْمَأَنَّت وَ قَامَتِ الخُلَفَاءُ.

وَانْتَهَى الدِّينُ بِالرَّجَاءِ إِلَيْهِ ⁂ وَ نُو الدِّينِ إِذْ هُمُ ضُعَفَاءُ.

مَنْ يَصُنْهُ يَصُنْ بَقِيَّةَ عِزٍّ ⁂ غَيَّضَ التُّرْكُ صَفْوَهُ وَالثَّوَاءُ [15].

ولما انتقل الرسول ρ إلى الرفيق الأعلى لم يُصَدِّقْ عمر مَنْ نعاه إليه، بل أخذ سيفه وتوعَّد كل واحدٍ يقول بذلك,وهنا يقول شوقي:

وَجِدْنَ بِالرَّاشِدِ الفَارُوقِ عَنْ رُشْدٍ ⁂ فِي المَوْتِ وَ هُوَ يَقِينٌ غَيْرُ مُنْبَهِمِ.

يُجَادِلُ القَوْمَ مُسْتَلاًّ مُهَنَّدَهُ ⁂ فِي أَعْظَمِ الرُسْلِ قَدْراً كَيْفَ لَمْ يَدُمِ.

لاَ تَعْذُلُوهُ إِذَا طَافَ الذُهُولُ بِهِ ⁂ مَاتَ الحَبِيبُ فَضَلَّ الصَبُّ عَنْ رَغَمِ [16].

ولم يكن عمر وحيد زمانه في صحابة رسول الله ρ الموصوفين بالشهامة والعدل والحياء والسهر على الرعية، بل الخليفة الراشدي الثالث عُثْمان بْن عَفَّان τ هو أيضاً ممنْ حَظِيَ بهذا الفضْل، لكنه سرعان ما يسقط شهيداً إثر الفتنة التي وقعت في آخر أيام خلافته، وقد سالت دماؤه على مصحفه، وفي ذلك يقول شوقي :

أَوْ كَابْنِ عَفَّانَ وَ القُرْآنُ فِي يَدِهِ ⁂ يَحْنُو عَلَيْهِ كَمَا تَحْنُو عَلَى الفُطُمِ.

وَيَجْمَعُ الآيَ تَرْتِيباً وَ يَنْظُمُهاَ ⁂ عِقْداً بِجِيدِ اللَّيَالي غَيْرَ مُنْفَصِمِ.

جُرْحَانِ فِي كَبِدِ الإِسْلاَمِ مَا الْتَأَمَا ⁂ جُرْحُ الشَّهِيدِ وَجُرْحٌ بِالكِتَابِ دَمِي [17].

ويتولى الخلافة الإمام عَليّ بْن أَبي طَالِب τ الذي اشتهر بالبلاغة والقدرة على الارتجال، كما اشتهر بقوة الحُجَّة في خطبه، وتَفَجُّرِ الحكمة من لسانه، مما جعل يأْسُرُ قلوب الناس بجوامع كلمه:

وَكَالإِمَامِ إِذَا مَا فَضَّ مُزْدَحِماً ⁂ بِمَدْمَعٍ فِي مَآقِي القَوْمِ مُزْدَحِمِ.

الزَّاخِرُ العَذْبُ فِي عِلْمٍ وَفِي أَدَبٍ ⁂ وَالنأَصِرُ النَدْبِ فِي حَرْبٍ وَ فِي سَلَمِ [18].

لكن سرعان ما تندلع الحرب بين المسلمين "يوم الجندل" و ذلك بعد أنْ توقع معاوية الهزيمة في موقعة صفين، فلجأ إلى عمرو داهية العرب الذي اقترح عليه حيلة للتخلص من هذا المأزق, و ذلك برفع المصاحف على رؤوس الرماح والدعوة إلى تحكيم القرآن، حينها أعلن معاوية أنَّ ممثله في التحكيم هو "عمرو بن العاص" بينما رُشِّحَ "أبو موسى الأشعري" من جانب الإمام علي ابن أبي طالب ،, يقول شوقي مُصوِّراً هذا المشهد:

أَسَمِعْتَ بِالحَكَمَيْنِ فِي ال ⁂ إِسْلاَمِ يَوْمَ الجَنْدَلِ.

فِي الفِـْتنَةِ الكُبْرَى وَلَو ⁂ لاَ حِكْمَةٌ لَمْ تُشْعَلِ.

رَضِيَ الصَّحَابَةُ يَوْمَ ذَ ⁂ لِكَ بِالكِتَابِ المُنْزَلِ.

وَهُمُ المَصَابِيحُ الرُوا ⁂ ةُ عَنِ النَبِيِّ المُرْسَلِ.

قَالُوا الكِتَابُ وَقَامَ كُلٌّ ⁂ لُ مُفَسِّرٍ وَمُوَوِّلِ.

حَتَّى إِذَا وَسِعَتْ مُعا ⁂ وِيَةً وَضَاقَ بِهَا عَلِي.

رَجَعُوا لِظُلْمٍ كَالطَّبَا ⁂ ئِعِ فِي النُّفُوسِ مُؤَصَّلِ.

نَزَلُوا عَلَى حُكْمِ القَوِي ⁂ يِ وَعِنْدَ رَأْيِ الأَحْيَلِ.[19]

3. **الدُّول و قادتها:**

وفي معرض الفخر بشخصيات التاريخ الإسلامية، استأثرت الدولة الأيوبية اهتمام أحمد شوقي، حيث اعتبرها راعيةَ الإسلام وحاميتَه، والمدافعة عن مصر والبلاد العربية ضد الغزو الصليبي، وفي ذلك يقول:

وَاذْكُرْ الغُرَّ آلَ أَيُّوبَ، وَ امْدَحْ ⁂ فَمِنْ المَدْحِ لِلرِّجَالِ جَزَاءُ.
هُمْ حُمَاةُ الإِسْلاَمِ، وَالنَّفَرُ البِيـ ⁂ ـضُ، المُلُوكُ، الأَعِزَّةُ، الصُّلَحَاءُ.
كُلَّ يَوْمٍ بِالصَّالِحِيَّةِ حِصْنٌ ⁂ وَبِبُلَبِيسَ قَلْعَةٌ شَمَّاءُ.
وَبِمِصْرٍ لِلعِلْمِ دَارٌ وَ لِلضَـ ⁂ ـفَانِ نَارٌ عَظِيمَةٌ حَمْرَاءُ.
وَلِأَعْدَاءِ آلِ أَيُّوبَ قَتْلٌ ⁂ وَلِأَسْرَاهُمُ قِرىً وَثَوَاءُ.
يَعْرِفُ الدِّينُ مَنْ صَلاَحٌ وَيَدْرِي ⁂ مَنْ هُوَ المَسْجِدَانِ وَالإِسْرَاءُ[20].

وفي قصيدة أخرى, يُفاخر أحمد شوقي بإنجازات آل أيوب في أكثر من مناسبةٍ واحتفالٍ,حيث يعرض لنا صوراً ناطقةً بمناقب آل أيوب الإسلامية سواء في إرسائهم لدولتهم أو أثناء مساهمتهم في ازدهار العلوم والحضارة و العمران في عصرهم حيث يقول:

عَفَا بَنُو أَيُّوبَ رَسْمَ مُلْكِهِمْ ⁂ وَغَادَرُوا السُّلْطَانَ طَامِسَ الصَّدَى.
وَجَمَعُوا النَّاسَ عَلَى خَلِيفَةٍ ⁂ مِنْ وَلَدِ العَبَّاسِ لاَ أَمْرَ وَ لاَ.
فَيَا جَزَى اللهُ بَنِي فَاطِمَةٍ ⁂ عَنْ مِصْرَ خَيْرَ مَا أَثَابَ وَ جَزَى.
كَمْ مُدُنٍ بَنَوْا وَ دُورٍ شَيَّدُوا ⁂ لِلصَّالِحَاتِ هَهُنَا وَ هَهُنَا.
هُمْ رَفَعُوا الإِصْلاَحَ مِصْبَاحاً فَمَا ⁂ مِنْ مُصْلِحٍ إِلاَّ بِنُورِهِمْ مَشَى[21].

ويبدو لنا مما سبق أن أحمد شوقي أخلص لشعره ولتاريخ أمته الإسلامية على حدٍّ سواء، حيث لم يفتأ في الاعتراف بمكانة التاريخ في التعبير الشعري و مدى تأثيره في حياة الناس. فقد استخدم الشاعر هذا العامل المحفز للإشادة بأمجاد السلف وتذكار تراثهم العريق الحافل بالمفاخر والبطولات ليستنهض هِمَمَ أبناء جِلْدَتِهِ، ويُثِير في نفوسهم الحماسَ والحَمِيَّةَ من أجل الدفاع عن مبادئ الدين القويم، والحفاظ على سيادة الوطن واستقلاله .

كما اعتبر الشاعرُ إشادَتَه بالشخصيات الإسلامية القديمة مادةً يستعيد من وهجها المضيء قبساً يُنير به دَرْبَ المستقبل الذي أظلمته الحروب والويلات وعكّرت صفوه النوائب والأزمات، لذا نراه يُلِحُّ على تصفح التاريخ المجيد لتُقْرأ في صحائفه أمجاد أمّته الخالدة التي حققت الغلبة تحت راية الإسلام و بنصر من الله مُؤَزَّرٍ:

اقرأ التَّارِيخَ إِذْ فِيهِ العِبَرَ ⁂ ضَاعَ قَوْمٌ لَيْسَ يَدْرُونَ الخَبَرَ [22].

و باعتبار التاريخ أيضاً وثيقة إنسانية تستحضر جوانب هامة من تجربة الإنسان لإضاءة أخباره و بيان وقائع زمانه:

وَخِزَانَةُ التَّارِيخِ سَاعَةَ عَرْضِهَا ⁂ لِلْفَخْرِ خَيْرُ كُنُوزِهَا مَاضِيكِ [23] .

ولم يكتف الشاعر بتذكار الماضي البعيد ، بل نرى التاريخ ينفذ إلى شعره عبر أحداث معاصرة شكلت مُنْعطفاً هاماً في صرح الأمة الإسلامية، وجزءاً كبيراً من نتاج الشاعر. حيث راح يشيد بأحداث كثيرة من مثل وصفه للوقائع العثمانية اليونانية لانتصارات الجيش التركي على اليونانيين في قصيدته "صدى الحرب" إذْ يقول:

ثَمَانُونَ أَلْفاً أُسْدُ غَابٍ ضَرَاغِمٌ ⁂ لَهَا مِخْلَبٌ فِيهِمْ وَ لِلْمَوْتِ مَخْلِبُ.

إِذَا حَلِمَتْ فَالشَّرُّ وَ سِنَانُ حَالِمٌ ⁂ وَ إِنْ غَضِبَتْ فَالشَّرُّ يَقْظَانُ مُغْضِبُ.

فَيَالِقُ أَفْشَى فِي البِلاَدِ مِنَ الضُّحَى ⁂ وَ أَبْعَدُ مِنْ شَمْسِ النَّهَارِ وَ أَقْرَبُ.

وَ تُصْبِحُ تَلْقَاهُمْ وَ تُمْسِي تَصُدُّهُمْ ⁂ وَ تَظْهَرُ فِي جِدِّ القِتَالِ وَ تَلْعَبُ.

تَلُوحُ لَهُمْ فِي كُلِّ أُفْقٍ وتَعْتَلِي ⁂ وَتَطْلُعُ فِيهِمْ مِنْ مَكَانٍ وَتَغْرُبُ.

وَتُقْدِمُ إِقْدَامَ اللُّيُوثِ وَتَنْثَنِي ⁂ وَتُدْبِرُ عِلْماً بِالوَغَى وَتُعَقِّبُ.

وَتَمْلِكُ أَطْرَافَ الشِّعَابِ وَتَلْتَقِي ⁂ وَ تَأْخُذُ عَفْواً كُلَّ عَالٍ وَ تَغْصِبُ.

وَتَغْشَى أَبِيَّاتِ المَعَاقِلِ وَالذُرَا ⁂ فَتَثْبُهُنَّ البِكْرُ وَالبِكَرُ ثَيِّبُ [24].

ويستمرُّ في استثمار هذه المناسبة القومية، حيث لا ينسى أنْ يمدحَ رمز الدولة العثمانية السلطان عبد الحميد واصفاً دوره في ذلك الانتصار الكبير قائلاً:

بِسَيْفِكَ يَعْلُو الحَقُّ وَ الحَقُّ أَغْلَبُ ⁂ وَ يُنْصَرُ دِينُ اللَّهِ أَيّانَ تَضْرِبُ.

فَأَدِّبْ بِهِ القَوْمَ الطُغَاةَ فَإِنَّهُ ⁂ لَنِعْمَ المُرَبِّي لِلطُّغَاةِ المُؤَدِّبُ.

وَدَاوِ بِهِ الدُّولاَتِ مِنْ كُلِّ دَائِهَا ⁂ فَنِعْمَ الحُسَامُ الطِّبُّ وَالمُتَطَبِّبُ.

وَمَمْلَكَةُ اليُونَانِ مَحْلُولَةُ العُرَى ⁂ رَجَاؤُكَ يُعْطِيهَا وَخَوْفُكَ يُسْلَبُ.

هَدَدْتَ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ كَيَانَهَا ⁂ بِأَسْطَعَ مِثْلِ الصُّبْحِ لاَ يَتَكَذَّبُ.

وَهَابَ العِدَا فِيهِ خِلاَفَتَكَ الَّتِي ⁂ لَهُمْ مَأْرَبٌ فِيهَا وَلِلَّهِ مَأْرَبُ [25].

ثم ما كان لذلك القائد من قيادةٍ راشدةٍ و سياسةٍ حكيمةٍ مع جنده الأشاوس في سبيل تحقيق النصر المبين :

سَمَا بِكَ يَا عَبْدَ الحَمِيدِ أُبُوَّةٌ ⁂ ثَلاَثُونَ خُضَّارُ الجَلاَلَةِ غُيَّبُ.

قَيَاصِرُ أَحْيَاناً خَلاَئِفُ تَارَةً ⁂ خَوَاقِينُ طَوْراً وَالفَخَارُ المُقَلَّبُ.

نُجُومُ سُعُودِ المَلِكِ أَقْمَارُ زُهْرِهِ ⁂ لَوَ أَنَّ النُّجُومَ الزُّهْرَ يَجْمَعُهَا أَبُ.

تَوَاصَوْا بِهِ عَصْراً فَعَصْراً فَزَادَهُ ⁂ مُعَمَّمُهُمْ مِنْ هَيْبَةٍ وَ المُعَصَّبُ [26].

والشاعر في هذه الأبيات كلها، إنما يطلق لشعوره العِنَانَ، فيستَحْضِرُ مواقف الفخار و يمجّد البطولة، لأن جِبلّةَ العربي تقوم على البطولة والإقدام، فهو عندما يستحضر التاريخ يكون قد ثقّفَهُ، فوعاه، فانفعل به، وتفاعل معه، لذا يفتح معجمه الذاتي، ليجمع من الألفاظ الدالَّة على العنفوان العربي، أقواها و أكثرها انفتاحاً واحتواءً على الذات العربية من مثل:ضَراغِمٌ – سنانُ – الوَغى– اللُيوثُ – الحُسَامُ – العِدَا– سَمَا – الزُهْرُ...الخ. ثم يقابلها بالحركة لتخرج الصورة معبرةً نابضةً بالحرارة والانفعال.

وفي هذا الإطار، تدخل قصائد أخرى تدلُّ دلالة واضحة على مدى تمسُّك شوقي بعُثْمَانِيَتِهِ. فالشاعرلم يَعِشْ في عالم آخر غير عالمه، ولم يكن يسمح لنفسه أن تشيد الأسوار من حوله، إذْ كان يعيش الأحداث المحيطة به ويتأثر بها، و بذلك كان عهده بالدولة العثمانية عَهْدَ خَيْرٍ، حيث لا عَجَبَ أن يفتخر شاعرنا –حيناً– بانتصار العثمانيين على يد قائدهم "مصطفى كمال باشا" في حربهم مع اليونان سنة 1887 وتشبيهه بخالد بن الوليد مُمتدحاً انتصاراته قائلاً :

اللَّهُ أَكْبَرُ كَمْ فِي الفَتْحِ مِنْ عَجَبٍ ⁂ يَا خَالِدَ التُّرْكِ جَدِّدْ خَالِدَ العَرَبِ.
خُطَاكَ فِي الحَقِّ كَانَتْ كُلُّهَا كَرَماً ⁂ وَ أَنْتَ أَكْرَمُ فِي حَقْنِ الدَّمِ السَّرِبِ.
حَذَوْتَ حَرْبَ الصَّلاَحِيِّينَ فِي زَمَنٍ ⁂ فِيهِ القِتَالُ بِلاَ شَرْعٍ وَ لاَ أَدَبِ.
لِلتُّرْكِ سَاعَاتُ صَبْرٍ يَوْمَ نَكْبَتِهِمْ ⁂ كُتِبْنَ فِي صُحُفِ الأَخْلاَقِ بِالذَّهَبِ.
تَلَمَّسَ التُرْكُ أَسْبَاباً فَمَا وَجَدُوا ⁂ كَالسَّيْفِ مِنْ سُلَّمٍ لِلْعِزِّ أَوْ سَبَبِ.
خَاضُوا العَوَانَ رَجَاءً أَنْ تُبَلِّغَهُمْ ⁂ عَبْرَ النَّجَاةِ فَكَانَتْ صَخْرَةَ العَطَبِ[27].

ويُشِيدُ – مرَّةً – بشباب دولة التُّرْك مع تحذيره إياهم لقعودهم عن نُصْرَةِ الإسلام ونُكُوصِهم عن الدفاع عنه :

يَا فِتْيَةَ التُّرْكِ حَيَّا اللهُ طَلْعَتَكُمْ ⁂ وَ صَانَكُمْ وَهَدَاكُمْ صَادِقَ الخِدَمِ.
أَنْتُمْ غَدُ المُلْكِ وَالإِسْلاَمِ لاَ بَرِحَا ⁂ مِنْكُمْ بِخَيْرِ غَدٍ فِي المَجْدِ مُبْتَسِمِ.
تُحِلُّكُمْ مِصْرُ مِنْهَا فِي ضَمَائِرِهَا ⁂ وَ تُعْلِنُ الحُبَّ جَمّاً غَيْرَ مُتَّهَمِ.
فَلاَ تَكُونُنَّ تُرْكِيًّا الفَتَاةُ وَ لاَ ⁂ تِلْكَ العَجُوزَ وَ كُونُوا تُرْكِيَا القِدَمِ.
فَسَيْفُهَا سَيْفُهَا فِي كُلِّ مُعْتَرَكٍ ⁂ وَعَدْلُهَا طَوَّقَ الإِسْلاَمَ بِالنِّعَمِ [28].

ثم يُحَيِّي التُّرْك – تارة أخرى – داعياً لهم المولى عزَّ وجلَّ بالتمكين والنصر على عدوهم اليونانيين :

بِحَمْدِ اللهِ رَبِّ العَالَمِينَا ⁂ وَ حَمْدِكَ يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَا.
لَقِينَا فِي عَدُوِّكَ مَا لَقِينَا ⁂ لَقِينَا الفَتْحَ وَ النَّصْرَ المُبِينَا.
فَلَمَّا هَبَّ جُورْجِيَهُمْ هُبُوباً ⁂ تَلَفَّتَ لاَ يُصِيبُ لَهُ مَعِينَا.
رَأَى كَيْفَ السَّبِيلُ إِلىَ كَرِيدٍ ⁂ وَكَيْفَ عَوَاقِبُ الطَّيْشِ المَزِيدِ.

بَنِي عُثْمَانَ إِنَّا قَدْ قَدَرْنَا ⁂ فَتُوحَكُمُ الكِبَارَ وَقَدْ شَكَرْنَا.
سَأَلْنَا اللهَ نَصْراً فَانْتَصَرْنَا ⁂ بِكُمْ وَ اللهُ خَيْرُ النَّاصِرِينَا [29].

ويرى الشاعر– بعد ذلك – في الأسطول العثماني بزعامة قائده "بربروس" إبراقةَ أملٍ جديدٍ، أضاءها فتيةٌ من أبناء هذه الأمة الإسلامية المجيدة في البحر المتوسط، وعليهم ينعقد الأمل في هزّ لواء مجْدِ الإسلام :

يَا بَرْبَرُوسُ عَلَى ثَرَاكَ تَحِيَّةٌ ⁂ وَ عَلَى سَمِيِّكَ فِي البِحَارِ سَلاَمُ.
أَعَلِمْتَ مَا أَهْدَى إِلَيْكَ عِصَابَةٌ ⁂ غُرُّ المَآثِرِ مِنْ بَنِيكَ كِرَامُ.
نَشَرُوا حَدِيثَكَ فِي البَرِيَّةِ بَعْدَ مَا ⁂ هَمَّتْ بِطَيِّ حَدِيثِكَ الأَيَّامُ.
خَصُّوكَ مِنْ أُسْطُولِهِمْ بِدَعَامَةٍ ⁂ يُبْنَى عَلَيْهَا رُكْنُهُ وَ يُقَامُ.
شَمَّاءُ فِي عَرْضِ الخِضَمِّ كَأَنَّهَا ⁂ بُرْجٌ بِذَاتِ الرَّجْعِ لَيْسَ يُرَامُ.
كَانَتْ كَبَعْضِ البَارِجَاتِ فَحَفَّهَا ⁂ لَمَّا تَحَلَّتْ بِاسْمِكَ الإِعْظَامُ [30].

أما سقوط الخلافة العثمانية بعد استمرار دام قرابة ثلاثة عشر قرناً، فقد أحدث دوياً عظيماً في العالم الإسلامي,لأن هذا السقوط يعني تجريد المسلمين وأراضيهم من سلطة راشدة يحسب لها الأعداء ألف حساب، بل إنه مُؤشِّرٌ على سقوط أمةٍ جريحةٍ، يقول فيها شوقي مُتأَسِّفاً:

عَبْدَ الحَمِيدِ حِسَابُ مِثْ ⁂ لِكَ فِي يَدِ المَلِكِ الغَفُورِ.
سُدْتَ الثَّلاَثِينَ الطِوَا ⁂ لَ وَ لَسْنَ بِالحُكْمِ القَصِيرِ.
قَالُوا اِعْتَزِلْ قُلْتَ اِعتَزَلْ ⁂ تُ وَ الحُكْمُ لِلَّهِ القَدِيرِ.
صَبَرُوا لِدَوْلَتِكَ السِّنِي ⁂ نَ وَمَا صَبَرْتَ سِوَى شُهُورِ.
أُوذِيتَ مِنْ دُسْتُورِهِمْ ⁂ وَ حَنَنْتَ لِلحُكْمِ العَسِيرِ [31].

ولم يكن جلاء عبد الحميد نتيجة لتضحية فردية, إنما سقطت خلافته بعد أن اجتمعت عليها قِوَى الشَّرْق والغرب الكافر من الصليبيين واليهود ومَنْ وَالاَهُمْ, فأفسدوا أحوال المسلمين وديارهم، ثم أوهموهم أن الخلافة هي سبب تأخرهم وفساد أحوالهم و أنَّ صلاح أمرهم مَرْهُونٌ بِزَوالِ الخلافة، مما جعل الدول الإسلامية تفكر كثيراً قبل أنْ تقْبلَ إِقْرار الخلافة فيها، وفي ذلك يقول شوقي :

بَعَثُوا الخِلاَفَةَ سِيرَةً فِي النَّادِي ⁂ أَيْنَ المُبَايِعَ بِالإِمَامِ يُنَادِي.
مَنْ بَاتَ يَلْتَمِسُ الخِلاَفَةَ فِي الكَرَى ⁂ لَمْ يَلْقَ غَيْرَ خِلاَفَةَ الصَّيَّادِ.
هَيْهَاتَ، عَزَّ سَبِيلُهَا وَ تَقَطَّعَتْ ⁂ دُونَ المُرَادِ وَسَائِلَ المُرْتَادِ.
قُلْ: فِيمَ يَأْتَمِرُ الرِّجَالُ ؟ وَ مَا الَّذِي ⁂ يَبْغُونَ مِنْ دُوَلٍ لَحِقْنَ بِعَادِ.
أُمَمٌ كَمَلْمُومِ القَطِيعِ تَرَى لَهُمْ ⁂ شَمْلَ الجَمِيعِ وَ فُرْقَةَ الآحَادِ.
يُدْعَوْنَ أَبْنَاءَ الزَّمَانِ وَ إِنَّمَا ⁂ جَمَدُوا وَ لَيْسَ أَبُوهُمُو بِجَمَادِ [32] .

ولعل شعر شوقي هذا يعطينا صورةً حيَّةً لمشاعر الناس التي كانت تتعلق في شيء فيه بقاءٌ واستمرارٌ للخلافة، لكن المظاهر كانت غير البواطن.كانت أوروبا وعميلها مصطفى كمال تُدْرك مدى عمق الخلافة وحساسيتها في نفوس المسلمين فعالجوا مشاعرهم بهذا الأسلوب الماكر، حيث أَخْفَوْا السّمّ في الدسم حتى إذا حانت ساعة الصفر كشفوا عن ضغينتهم وأعلنوها علمانية حمراءن فانْتبهَ مَنْ أَحْسنَ الظَّنَّ من المسلمين وعاد شاعرنا شوقي يُسَفِّهُ الأحلام التي سطرها في مصطفى كمال ويجعل مِنْ عُرْسِ عودة الخلافة قبراً تُدْفَنُ فيه تلك الخلافة، ومِنْ مدحه للخليفة هجاءً يتحاشاه: " تورُّعاً أو تقصيراً (...) ولعله خشِيَ العاقبةَ فآثر السلامة، وكان في استطاعته أنْ يُسجِّلَ الأحداث الهامة، ويذُمَّ القبيحَ منها ومن آثارها، (...) مُكْتفِياً بالتلويح المَبْهم والرمز الغامض (...) فَيُرْضِي بذلك نفسه التي تخشى العواقِبَ ويُرْضِي الأدب والأدباء الذين يتهمونه بالتقصير" [33] . وفي ذلك يقول وقلبه عامرٌ بالحزن المعبر عن خيبة الأمل:

عَادَتْ أَغَانِي العُرْسِ رَجْعَ نُوَاحِ ⁂ وَنُعِيَتِ بَيْنَ مَعَالِمِ الأَفْرَاحِ.
كُفِّنَتِ فِي لَيْلِ الزِّفَافِ بِثَوْبِهِ ⁂ وَدُفِنَتِ عِنْدَ تَبَلُّجِ الإِصْبَاحِ.
شُيِّعَتِ مِنْ هَلَعٍ بِعَبْرَةِ ضَاحِكٍ ⁂ فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ وَسَكْرَةِ صَاحِ.
ضَجَّتْ عَلَيْكِ مَآذِنٌ وَمَنَابِرٌ ⁂ وَبَكَتْ عَلَيْكَ مَمَالِكٌ وَنَوَاحِ.
الهِنْدُ وَالِهَةٌ وَ ِمصْرُ حَزِينَةٌ ⁂ تَبْكِي عَلَيْكِ بِمَدْمَعٍ سَحَّاحِ.
وَالشَّامُ تَسْأَلُ وَالعِرَاقُ وَفَارِسٌ ⁂ أَمَحَا مِنَ الأَرْضِ الخِلاَفَةَ مَاحِ.
وَأَتَتْ لَكَ الجُمَعُ الجَلاَئِلُ مَأْتَماً ⁂ فَقَعَدْنَ فِيهِ مَقَاعِدَ الأَنْوَاحِ.
بَكَتِ الصَّلاةُ وَ تِلْكَ فِتْنَةُ عَابِثٍ ⁂ بِالشَّرْعِ عِرْبِيدِ القَضَاءِ وَقَاحِ.
أَفْتَى خُزَعْبِلَةً وَقَالَ ضَلاَلَةً ⁂ وَأَتَى بِكُفْرٍ فِي البِلاَدِ بَوَاحِ [34].

وعندما بلغ الحدثُ العربي ذروته أثناء الثورة العُرابية،راح كل مصريٍّ يُصوِّرُ غضبه نحو الانتداب البريطاني والموالين له، مُتَّخِذاً من العُرابيين أسوةً حسنةً في الدفاع عن دينهم ووطنهم ضدَّ أيِّ تدخا أجنبي ومطْمعٍ أوربي. وقد اشترك في هذه المعركة بقلمه وكتب يقول :

أَهْلاً وَ سَهْلاً بِحَامِيهَا وَ فَادِيهَا ⁂ وَ مَرْحَباً وَ سَلاَماً يَا عُرَابِيهَا.
وَبِالكَرَامَةِ يَا مَنْ رَاحَ يَفْضَحُهَا ⁂ وَ مُقْدِمَ الخَيْرِ يَا مَنْ جَاءَ يُخْزِيهَا.
وَضَعْ عَمَامَتَكَ الخَضْرَاءَ مِنْ شَرَفٍ ⁂ يَعْرِفْكَ كُلُّ جَهُولٍ مِنْ أَهَالِيهَا.
لَمْ يَنْصُرِ اللهُ بِالأَحْلاَمِ صَاحِبَهَا ⁂ لَكِنْ بِكُلِّ عَوَانٍ كَانَ يُذْكِيهَا.
أُبُوَّةُ المُصْطَفَى مَازَالَ يَلْبَسُهَا ⁂ حُرٌّ قَشِيبُ شَبَابِ الفَخْرِ ضَافِيهَا.
وَأَصْبَحْتَ لِجَبَانِ القَوْمِ مَنْقَبَةً ⁂ وَزِينَةٌ لِجَهُولِ القَوْمِ يُبْدِيهَا [35].

ثم يحوّل شوقي صرخته القومية التي تدخل عنده ضمن الإطار الإسلامي، إلى أُمْنِيةٍ حقَّقها زعيم مصر "سعد زغلول" لشعبه بإيقاظه لنار ثورة 1919 ضد الوجود الانجليز,إذْ يُظْهِرُ إعجابَه بهذا البطل ويُعدِّدُ فضائِلَه قائلاً :

قُمْ إِلَى الأَهْرَامِ وَاخْشَعْ وَاطَّرِحْ ⁂ خِيلَةَ الصَّيْدِ وَزَهْوَ الفَاتِحِينَ.
وَتَمَهَّلْ إِنَّمَا تَمْشِي عَلَى ⁂ حَرَمِ الدَّهْرِ وَيُنَادِي الأَوَّلِينَ.
ادْعُ قَوْمِي مَنْ ذَرَى أَعْوَادَهُ ⁂ لِخِلاَلٍ كَالصَّبَاحِ المُسْتَبِينَ.
قُلْ لَهُمْ عَهْدِيَ فِيكُمْ أُمَّةٌ ⁂ عَرَفُوا الحَقَّ وَقَوْماً صَابِرِينَ.
عَطَفَ الدَّهْرُ عَلَى ثَوْرَتِكُمْ ⁂ وَلَوَى النَّاسُ عَلَيْهَا مُعْجَبِينَ.
قَامَ رَهْطٌ مِنْكُمْ فَاقْتَحَمُوا ⁂ كِبْرِيَاءَ الفَاتِحِينَ الظَّافِرِينَ.
زَادَهُمْ سَعْدُ شَبَاتَيْ هِمَّةً ⁂ كَالحُسَامِ العَضْبِ وَالرُّمْحِ السِّنِينَ [36].

وهذه الثورة التي أصبحت أملاً منشوداً لشباب مصر خاصة, يرجو الشاعر منهم الاقتداء بهذا الرجل والسير على خُطاه في تحرير مصر ودفع عجلة تطورها حيث يقول:

يَا شَبَابَ اقْتَدُوا بِشَيْخِ المَعَالِي ⁂ فَالمَعَالِي تَشَبُّهٌ وَ تَحَدِّي.
قَدْ تَصَدَّى لِنَائِبَاتِ حُقُوقٍ ⁂ غَيْرَ سَهْلٍ لِمِثْلِهِنَّ التَّصَدِّي.
حَزَنَتْهُ بِلاَدُهُ وَهِيَ صَيْدٌ ⁂ بَيْنَ نَابَيْ مُظَفَّرِ النَّابِ وَرْدِ.
جَاءَهَا سَعْدٌ شَاهِرَ الحَقِّ يَدْعُو ⁂ سَيْفَهَا المُنْتَضَى لِخُطَّةِ رَشْدِ.
وَإِذَا مِصْرُ كَاللُّبُوءَةِ غَضْبَى ⁂ لِابْنِهَا تَبْذُلُ الدِّمَاءَ وَ تُفْدِي [37] .

ولشوقي مشاركات أخرى في الأحداث التاريخية العربية وشخصياتها الإسلامية، سواء تلك التي جاءت من باب الإعجاب أو من ناحية المواساة، حيث لم يقتصر في شعره على مصر وأحداثها وإنما نَظَمَ رائعَ الأشْعارِ في القومية العربية والإسلامية التي جعل منها موطنه الكبير. ولذلك كان: " العرب ومكة والوحي والقرآن والإسلام والرسول، كلها معانٍ لها من الأثر في نفْسِ شوقي ما ليس لسواها من آثار الماضي" [38]. ومن تلك الرموز التاريخية الإنسانية ذات الدلالات العميقة التي فسرت رؤية الشاعر وموقفه من أحداث عصره، قصيدته "نكبة بيروت" التي يتابع أحداثها مُؤازَرةً وتبشيراً لبيروت وأهلها في أحزانها يوم ضُرِبَتْ بالأسطول الإيطالي سنة 1911 حيث يقول:

بَيْرُوتُ مَاتَ الأُسْدُ حَتْفَ أُنُوفِهِمْ ⁂ لَمْ يُشْهِرُوا سَيْفاً وَ لَمْ يَحْمُوكِ.
سَبْعُونَ لَيْثاً أُحْرِقُوا أَوْ أُغْرِقُوا ⁂ يَا لَيْتَهُمْ قُتِلُوا عَلَى طَبَرُوكِ.
سَالَتْ دِمَاءٌ فِيكِ حَوْلَ مَسَاجِدٍ ⁂ وَ كَنَائِسٍ وَ مَدَارِسٍ وَ بُنُوكِ.
لَكِ فِي رُبَى النِّيلِ المُبَارَكِ جِيرَةٌ ⁂ لَوْ يَقْدِرُونَ بِدَمْعِهِم غَسَلُوكِ [39].

ويستمر الشاعر في تعاطفه مع قضايا أمته الإسلامية، لاسيما حين اعتدتْ فرنسا على دمشق سنة 1926، فنظم قصيدته "نكبة دمشق" يُندِّدُ فيها بالاحتلال الفرنسي وما اقترفه من جرائم، و يُحَرِّضُ شبابَ سوريا ويَشُدُّ أزْرَهم مع الإشادة ببسالتهم في قوله:

وَلِلْمُسْتَعْمِرِينَ وَإِنْ أَلاَنُو ⁂ قُلُوبٌ كَالحِجَارَةِ لاَ تَرِقُّ.
رَمَاكِ بِطَيْشِهِ وَرَمَى فَرَنْسَا ⁂ أَخُو حَرْبٍ بِهِ صَلَفٌ وَحُمْقُ.
دَمُ الثُّوَّارِ تَعْرِفُهُ فَرَنْسَا ⁂ وَتَعْلَمُ أَنَّهُ نُورٌ وَحَقُّ.
بِلاَدٌ مَاتَ فِتْيَتُهَا لِتَحْيَا ⁂ وَزَالُوا دُونَ قَوْمِهِمُ لِيَبْقُوا.
نَصَحْتُ وَنَحْنُ مُخْتَلِفُونَ دَاراً ⁂ وَلَكِنْ كُلُّنَا فِي الهَمِّ شَرْقُ.
وَيَجْمَعُنَا إِذَا اِخْتَلَفَتْ بِلاَدٌ ⁂ بَيَانٌ غَيْرُ مُخْتَلِفٍ وَنُطْقُ.
جَزَاكُمْ ذُو الجَلاَلِ بَنِي دِمَشْقٍ ⁂ وَعِزُّ الشَّرْقِ أَوَّلُهُ دِمَشْقُ [40].

وها هو يشتعل ألماً وحسرةً على استشهاد البطل عمر المختار الذي قدم حياته تضحيةً في سنة 1931، حيث يَحُوزُ هذا النبأ أحاسيس الشاعر واهتماماته فيقول مُؤرِّخاً لهذا الحدث الجَلَل:

رَكَزُوا رُفَاتَكَ فِي الرِّمالِ لِواءَ ⁂ يَسْتَنْهِضُ الوَادِي صَبَاحَ مَسَاءَ.
يَا وَيْحَهُمْ نَصَبُوا مَنَاراً مِنْ دَمٍ ⁂ تُوحِي إِلىَ جِيلِ الغَدِ البَغْضَاءَ.
جُرْحٌ يَصِيحُ عَلَى المَدَى وَ ضَحِيَّةٌ ⁂ تَتَلَمَّسُ الحُرِّيَةَ الحَمْرَاءَ.
تِلْكَ الصَحَارِي غِمْدُ كُلِّ مُهَنَّدٍ ⁂ أَبْلَى فَأَحْسَنَ فِي العَدُوِّ بَلاَءَ.
فِي ذِمَّةِ اللهِ الكَرِيمِ وَ حِفْظِهِ ⁂ جَسَدٌ بِبُرْقَةَ وُسِّدَ الصَحْرَاءَ.
بَطَلُ البَدَاوَةِ لَمْ يَكُنْ يَغْزُو عَلَى ⁂ تَنَكٍ وَ لَمْ يَكُ يَرْكَبُ الأَجْوَاءَ.
لَكِنْ أَخُو خَيْلٍ حَمَى صَهَوَاتِهَا ⁂ وَ أَدَارَ مِنْ أَعْرَافِهَا الهَيْجَاءَ.
لَبَّى قَضَاءَ الأَرْضِ أَمْسِ بِمُهْجَةٍ ⁂ لَمْ تَخْشَ إِلاَّ لِلسَّمَاءِ قَضَاءَ [41].

وتميَّزَتْ القصائد الثلاثة الأخيرة بما يلي:

1) اعتماد الشاعر على قوة اللَّفْظة لتقديم إيحاء دلالاتها مثل قوله: حِيرَةٌ، صَلَفٌ، عِزّ، وَيْحَهُمْ، ...إلخ.

2) خُلُوُّهَا من المباشرة والخطابية المُرْتجلة.

3) دَعْمُهَا بالصورة المتحركة، لتتركَ أثرها المباشر في نفس المتلقي, كقوله: سَبْعُونَ لَيْثاً أُحْرِقُوا أَوْ أُغْرِقُوا، كَالحِجَارَةِ لاَ تَرِقُّ، رَكَزُوا رُفَاتَكَ فِي الرِّمالِ، مَنَاراً مِنْ دَمٍ، جَسَدٌ بِبُرْقَةَ وُسِّدَ الصَحْرَاءَ ... إلخ.

تلك هي إذن فلسفة أحمد شوقي و نظرته للتاريخ، حيث قدَّسَ أحداث الماضي وأشاد برجاله، وتوقَّف كثيراً عند عظمة الأولين وعلومهم وحضارتهم: "وقفةَ المُعْجبِ الذي حار عقله في الوصول إلى ما وصلوا إليه، وهذه آثارهم تدل على براعتهم وتفوقهم, وتلك أوابدهم الباقية,و نقوشهم,و معابدهم,و منحوتاتهم,و تماثيلهم, فقد أبدعوا صُنْعاً، ودِقَّةَ فَنٍّ، و بَقاءَ أثَرٍ لا تمْحُوهُ الدُّهور" [42]. كما

أنَّ الشاعر لا يكاد يترك مناسبةً وطنيةً أو إسلاميةً إلا وقَرَضَ شعراً فيها،حيث ظلَّ يَشْحَذُ طاقات شعره التنويرية منها والتحريضية، ليتخذها منبراً جماهيرياً يكفل له الاتصال بأبناء شعبه وبالأمة العربية جمعاء، فبدا شعره مزيجاً من: "الذاتي بالموضوعي والموضوعي بالذاتي, وهو لا يتحدث عن المفصل التاريخي بجزئياته، ولكنه يتناول الكليات منه، ليفسح لذاتيته دوراً ومجالاً في الظهور والبروز على حساب الوثيقة التاريخية" [43]. وأمثلة ذلك كثيرة ومتنوعة– في شعره – ككثرة المناسبات الوطنية والإسلامية، ومتنوعة بتنوع الأحداث التي عصفت بالبلاد العربية و الإسلامية على حدٍّ سواء .

أخيراً نستنتج ممَّا سبق أنّ أحمد شوقي لم يترُكْ مُناسبةً تاريخيةً أو حَدثاً وطنياً إلا عايشه بفكره وإحساسه , ويمكننا – بعد استقرائنا لموضوعات شعره التاريخي– أنْ نصُوغَ النتائج التالية :

◈ شغفُ شوقي بالتاريخ كبيرٌ، حيث لم تقتصر ثقافته على الأدب وكتب اللغة والدواوين الشعرية، وإنما تعدَّى ذلك النطاق، حيث قرأ التاريخَ و ألمَّ به قديماً وحديثاً، بل لا يمكننا أنْ نفهمَ إشاراته التاريخية أحياناً منْ غيرِ أنْ نكونَ مُتَضَلِّعينَ من مادة موضوعها.

◈ اتكأ أحمد شوقي على الشخصيات الإسلامية والأحداث التاريخية في تشكيل الأبعاد الدلالية لشعره الإسلامي، حيث اتخذ من صفات تلك الشخصيات وما اشتهرت به عبر التاريخ رموزاً، ومن الأحداث التاريخية الهامة مُفَسِّراً لموقفه ورأيه في الواقع المحيط به. إلاَّ أنَّ شوقياً لم يتقيد بسَرْد الحَدَث التَّاريخي كما وقع أو كما رُوِيَ، بل إنه حَذَفَ منه عناصرَ وأضافَ عناصرَ أخرى تنْسجِمُ مع العناصر القديمة، ليُعِيدَ تركيب الكلّ بشكل جديد يتناسب ونَظْرته في واقعه المعاش.

◈ إنَّ حُضور الشخصية الإسلامية في قصائد أحمد شوقي باسْمِها ولقبها وكنيتها وبِسِمَاتِهَا الجسدية، و ما عُرِفَ عنها من نزوع واهتمامات، يُعِينُ على معرفة تاريخ تلك الشخصية وبيان وقائعها، ومن ثم الاقتراب أكثر من حقيقة ما يُرْوَى عنها وتوثيق تأريخها، لتصبح بعد ذلك وثيقة إنسانية تستحضرها نصوص شعرية كثيرة.

◈ لقد وظَّفَ شوقي في حديثه عن الشخصيات الإسلامية نفس النهج في حديثه عن الأحداث التاريخية، سواء في استعماله للتلميح والإشارة من خلال التشبيه والتضمين والاقتباس، أوْ بطريق الاستغراق الكامل وتوظيف الفني الفعال الذي يستثير الماضي ويُذَكِّرُ به ويحُثُّ على استخلاص العبر منه، وهو بذلك يبوح بتجربته وموقفه من خلال الرموز والدلالات التي ينطوي عليها ذلك الماضي .

◈ لا تكاد تخلو قصائد شوقي التاريخية والإسلامية من حِكَمٍ وأمثالٍ، حيث باتت الحكمة والتعبير عن النفس البشرية في سلوكات الناس هي المزية الكبرى في شعره. فإنَّك واجدٌ تلك الحكمة التي تفوق بها عن غيره من الشعراء في حديثه عن المجتمع,كما تتلمسها في التاريخ و ما انتهت إليه مواقف الأبطال التاريخية من عِبرٍ و ظاتٍ.

◈ يسعى شوقي في الكثير من المرات في شعره التاريخي، إلى أنْ يَصِلَ من خلال إشاراته العديدة و المتداخلة إلى البوح بموقفه و رؤيته الذاتية في فترات التاريخ العربي و الإسلامي ، و لعل تلك الإشارات العرضية والإلماحات التاريخية السريعة التي نراها بين ثنايا قصائده، هي التي جعلته لا يكون حِيادياً في العديد من المواقف، مما سمح لآرائه الشخصية غير الحِيادية أنْ تتسلَّلُ إلى قصائده و بشكل واضح .

◈ إنَّ استخدام شوقي لأسماء الأعلام أمثال: "عمر بن الخطاب"، و"خالد بن الوليد"، و"عمر المختار"، وغيرها من الشخصيات التي تألَّقَتْ خلال تاريخ هذه الأمة المجيد ,كان له دلالته بَيِّنَة تمثلتْ في حَضِّ الناس على التغيير بما يتناسب وتاريخنا المشرق بالبطولات الانتصارات. وفي أحايين أخرى، كان هدفه من استحضار لهذه الشخصيات إبراز التناقض الحاد بين روعة الماضي و تألُّقه، وفساد الحاضر وتدهوره بالتخلّف والاحتلال،هذا ما جعل من قصائده التاريخية تتَّسِمُ بالجدلية الزمانية والمكانية .

◈ لقد ازدهرت القصائد التاريخية الإسلامية في شعر أحمد شوقي حيث لَمْ يُعْنَ فيها بنفسه بقدر ما عُنِيَ بالشعب المصري والشعوب العربية والإسلامية من حوله، وتصوير عواطفه ومشاعره تجاه الأحداث والوقائع التي كابدتها.

الإحالات

1. عبد الكريم النهشلي , الممتع في علم الشعر و عمله – تحقيق / المنجي الكعبي– تونس – الدار العربية للكتاب – ب.ط – ب.ت – ص 24
2. شوقي ضيف , الأدب العربي المعاصر في مصر – القاهرة – دار المعارف – ط 2 – 1961 – ص 53 .
3. حلمي علي مرزوق , شوقي و قضايا العصر و الحضارة – بيروت – دار النهضة العربية – ط 2 – 1981 – ص 111 .
4. أحمد شوقي , الشوقيات – بيروت – دار الكتاب العربي – ط 13– 2001 – ج 1 – ص 256 .
5. المصدر نفسه – ج 1 – ص 28 .
6. حلمي مرزوق , شوقي و قضايا العصر و الحضارة – ص 121 .
7. أحمد شوقي , الشوقيات – ج 1 – ص 27 .
8. المصدر نفسه – ج 1 – ص 28 .
9. شوقي ضيف , الأدب العربي المعاصر في مصر – ص 118 .
10. أحمد شوقي , الشوقيات – ج 1 – ص 201 و 202 .
11. المصدر نفسه – ج 1 – ص 34 .
12. المصدر نفسه – ج 1 – ص 29 .
13. المصدر نفسه – ج 1 – ص 30 .
14. المصدر نفسه – ج 1 – ص 206 و 207 .
15. المصدر نفسه – ج 1 – ص 31 .
16. المصدر نفسه – ج 1 – ص 207 .
17. المصدر نفسه – ج 1 – ص 206 .
18. المصدر نفسه – ج 1 – ص 206 .
19. المصدر نفسه – ج 1 – ص 179 و 178 .
20. المصدر نفسه – ج 1 – ص 31 و 32 .
21. المصدر نفسه – ج 1 – ص 45 .
22. المصدر نفسه – ج 4 – ص 39 .
23. المصدر نفسه – ج 2 – ص 83 .
24. المصدر نفسه – ج 1 – ص 44 و 45 .
25. المصدر نفسه – ج 1 – ص 42 .
26. المصدر نفسه – ج 1 – ص 42 و 43 .
27. المصدر نفسه – ج 1 – ص 59 و 60 و 61 .
28. المصدر نفسه – ج 1 – ص 225 و 226 .
29. المصدر نفسه – ج 1 – ص 280 و 281 و 285 .
30. المصدر نفسه – ج 1 – ص 228 و 229 .
31. المصدر نفسه – ج 1 – ص 121 و 122 .
32. محمد صبري , الشوقيات المجهولة – ج 2 – ص 200 و 203 .
33. عباس حسن , المتنبي و شوقي – ص 31 .
34. أحمد شوقي , الشوقيات – ج 1 – ص 105 و 106 .
35. محمد صبري , الشوقيات المجهولة – بيروت – دار المسيرة – ط 2 – 1979 – ج 1 – ص 255 و 256 و 257 .
36. المرجع نفسه – ج 2 – ص 273 و 274 .
37. المرجع نفسه – ج 2 – ص 245 .
38. أحمد شوقي , مقدمة الشوقيات – ج 1 – ص 13 .
39. المصدر نفسه – ج 1 – ص 162 و 163 .
40. المصدر نفسه – ج 2 – ص 76 و 77 .
41. المصدر نفسه – ج 3 – ص 17 و 18 .
42. خليل الموسى , قراءات في شعرية الشعر العربي الحديث – دمشق – مطبعة اليازجي – ط 1 – 2001 – ص 79 .
43. المرجع نفسه – ص 79 .